توطئة ...

كتبت — فى هـذا الباب — منذ أسابيع بعض رأيى فى الشعر والشعراء ، ولم يكن همى أن أستوفى كل الرأى فيهما وليس من عملى الآن أن أفصل ذلك ، وإنما هى إشارات فى لمحات يأخذ بها من يأخذ، ويدعها من شاء أن يدع؛ وأنا أحب أن أقدم بين يدى كلامى ... فإن بعض من يغافل نفسه عن حدود الألفاظ ومعانيها ينطلق من ورائها يمد منها بأوهامه مداً بعيداً حتى يخرج بما نكتبه عن المعنى الذى نريده إلى أحلام ووساوس وخطرات يحم بها ثم يغلى ثم ينتفض... ثم لا يكون رأيه فينا إلا وهماً، من فوقه وهم ، من فوقه عناد ، ظلمات بعضها فوق بعض

فأنا حين أهجم على الغرض الذى أريده من النقد أو البيان ، لا أتلجلج دونه لما أخشاه من قالة السوء التى يوكل بها بعض من فرغ زمانه إلا من الفراغ الذى يستهلكه فى اختلاق الأوهام واقعة وطائرة، رائحة وغادية، ثم هو يجلس إليها — بعد أن تفصيل عنه — ليتأملها ويملأ عينيه وأذنيه من مفانها وألحانها ! وأنا أحب أن يعلم من ليس يعلم أنى حين أكتب أكتب عن صديق وكأن ليس بينى وبينه سبب من مودة، وأكتب عن عدوي وكأن ليس بينى وبينه دخان من غضب . فإذا خُيِّل لبعض من يتخيل أنى أماسح صديق أو أتلفف على عدوى فقد أخطأ ، وإنما العيب منه لا منا . . . وذلك عيب علمه أن هذا عدو وهذا صديق ، فيرى من وراء اللفظ ومن تحته ومن فوقه ومن بين يديه معانى ليست منه ولا تتداعى إليه ، وإنما نحن نستوفى الكلام ونعطيه حقه على وجوهه فى الرضا والغضب ، ونأخذ أنفسنا بذلك ما استطعنا ، فإن الحق فى هـذا الذى نكتبه هو حق القارئ لا شهوات من يكتبه ؛ ثم هو بعد ذلك رأينا أصبنا أو أخطأنا ، وليس علينا أن نوافق هوى قارئ لأنه هواه ، بل علينا أن نجتهد له فى إمحاض الرأى الذى نراه ليأخذ منه أو يدع على قدر من اقتناعه أو مخالفته؛ فهذه كلمة أوطئ بها ما بينى وبين القراء ؛ ليسيروا إلينا ونسير إليهم فى مهاد مذلل من الرأى والنصيحة ...

ويسدّه قومٌ كثيرٌ تجارةً ... ويمنعُنى من ذاك دينى ومنصبى

الملوح التائه !

أما « الملاّح التائه » فذاك هو الصديق الشاعر المهندس « على محمود طه » ، وقد عاد بعد خمس سنوات فألقى على شاطئنا ديوانه الثانى « ليالى الملاح التائه » ثم نشر شراعه ومضى . وقد أحدث ظهور هذا الديوان الجديد — فى معرضه الأنيق وشعره القوى الجميل — آثاراً فى توجيه أنظار الناس إليه وإلى صاحبه ثم إلى الشعر خاصة ، ثم اختلف الأدباء عليه بأحاديثهم وآرائهم ، ولغَوْا لغواً كثيراً فى الأغراض التى اشتملت عليها صفحتا هذا الديوان الثانى من شعر « الملاح التائه » . ونحن لن نعرض لشىء مما قيل فى ذلك إلا كما يدرج الكلام على أغراضه بالإشارة والتنبيه والبيان على مجاز السياق

والشعر أيضاً !

ولا بُدّ من أن نعود مرة أخرى للحديث عن الشعر عامةً ، ليكون بعض الرأى فيه مدخلاً للكلام عن « الملاح التائه » ؛

دفن الرقاد قلوبهم برموسه ... وحبا الرياء نفوسهم بشعاره

فانساب تحت الليل يقبس لمعة ... كالمستجير من الصقيع بناره

وازورّ عن أفق الظلام مُغبراً ... تتقطع الأعناق دون غباره

متبتـل ترك الأنام وراءه ... ونجا يحطم من وثيق إساره

حتى إذا نسج الظلام حياله ... ثوب الفناء ولفّـه بإزاره

أرست نوازعه وأشرق لبه ... ورمى الأزمة فى يدى أقداره

فتطايرت آماله من قلبه ... مذعورة النسمات من إعصاره

وترنمت فى ثغره ضحكاته ... بالسخر ترسل من خميج جماره

ورد الحياة وفرّ عن آفاقها ... مستهزئاً بقـدومه وفراره

(الخليل — فلسطين) عبد الرحمن الكيالى

فإن أكثر ما قيل — عن ديوان هذا الشاعر — إنما مردُّه إلى آراء فاسدة في معنى الشعر ، وما هو ، وكيف هو ؛ وإلى الجهل بطبيعة الشاعر وفطرته ومن أين تأتى ، وأنى تتوجه ، وكيف تجرى به إلى أغراضها على نظام لا ينفكُّ عنه أراد أو لم يُرِدْ

وليس يشكُّ أحدٌ أن الشعر في أصله هو معانٍ يريدُها الشاعرُ ، وأن هذه المعانى ليست إلا أفكاراً عامّةً يشتركُ في معرفتها كثير من الناس ، وأنها دائرةٌ في الحياة على صورتها التي تأخذُها بها كل عينٍ ، ويتداولها من جهته كل فكرٍ ، وأنها — إذ كانت كذلك — ليست شيئاً جديداً في الحياة ولا في معانيها وأوصافها وحقائقها ، وإنما تصيرُ هذه المعانى شعراً حين يعرضها الشاعر في معرضٍ من فنّه وخياله وأدائه ولفظه ، فيجدد لك هذه المعانى تجديداً بنقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة ، ومن إدراك المعنى إلى التأثُّر بالمعنى ، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة ، فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة وكأنه قد خرج عن صورته التي ضُربت عليه في الحياة إلى السِّر الأول الذى أبدع هذه الصورة ، وإلى الصلة التي تصل ما بين المعلوم إلى المجهول البعيد الذى لا يُرى ولا يُلمس

فالشعور والتأثر والاهتزاز هى أصل الشعر ، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلاماً كسائر الكلام ليس له فضلٌ إلا فضل الوزن والقافية وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعانى من حيث هى معانٍ معقولة مدركة ، وإنما هى فيه من روح الشاعر وأعصابه ، ونبضات الشوق الأبدى التي تعتزى في دمه ؛ فأيُّما معنًى عرفه للشاعر ، وأيُّما صورة رآها ، وأيُّما إحساس أحس به ، فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول في روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن زيها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه ، ثم تريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه في مغانيها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها في زينتها وأثوابها . وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبه أخيلته الظامئة العارية ، يكون النقص الذى يلحق المغازى الجميلة التي تسبح في دمه من معانيه

والشعر على ذلك هو فن تجميل الحياة ، أى فن أفراحها الراقصة في نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة ؛ وفن أحزانها النائحة في هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة المؤلمة ؛ وفن ثوراتها المزمجرة في أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق ، قد كُفَّتْ وراء أسوار الحقيقة المفرحة المؤلمة في وقت معاً

وهو على ذلك فلسفة الحياة ، أى فلسفة السمو بالحياة إلى السر الأبدى الذى بث في الحياة أسراره المستغلقة المبهمة التي تُرى ولا تُرى ، وتظهر ولا تظهر ، وتترك العقل إذا أرادها حائراً ضائعاً مشرداً في سبحات من الجمال تضيء فيه بأفراحها كما تضيء بأحزانها ، وتفرح بكليهما وتحزن ، فرحاً سامياً أحياناً ، وحزناً سامياً أبداً

وإذا كان الشعر هو فلسفة السمو بالحياة ، فمعنى ذلك أنه النظام العقلى الدقيق الذى يبلغ من دقته أن يكون منطقه إحساساً مسدداً لا يخطئ ولا يزيغ ولا يبطل ولا يتناقض في أسلوبه الفنى ونظامه الشعرى البديع ، وهذا النظام العقلى النابض الذى يتلقف مادة أفكاره من الحياة لا يستطيع أن يشعر أحياناً ، ولا يشعر أحياناً ، كما قال بعضهم ، ولا يستطيع أن يتقيد بزمان ومكان يستوحى منهما الشعر ثم لا يكون هو يستوحى من غيرهما ، كما ذهب بعض أصحاب الكلام إلى القول حين ظهر « ليالى الملاح التائه » في شعر الطبيعة المصرية ، وشعر الطبيعة الأوربية وما إلى ذلك من فضول الحديث

إنّ هذه الحاسّة العاقلة المفكرة النابضة في الشاعر تأخذ مادتها من مَساقط الوحى في كل أرضٍ وتحت كل سماء ؛ وربَّ خمول أو فترة تأخذُ هذه الحاسة في موطنها ومنشئها ومدْرجها ثم تكونُ البلادُ البعيدة في مطارح الغُرْبة هى التي تنفُض عنها غبارها وتمسحه حتى تجلوها جلاء المرآة ، إعداداً لها لتتلقى صُورها التي تجرى في مائها إلى دم الشاعر ثم إليها مرة أخرى ، ولا تزال كذلك بين الأخذ والإعطاء حتى ينبثق ماء الينبوع من صخرة الحياة الشاعرة

فلا يخدعنَّك ما يقول فلانٌ وفلانٌ ، فإنْ هم إلا أسماء قد ركبتْ على ألقابها تركيباً مَزجيًّا على خطأ وفساد ، كما ركِّبتْ حضرَموت وبعلَبك تركيباً مزجيًّا على صحة وصواب

ليالى الملاح التائه

كل هذا الديوان شعرٌ من شعر « على طه » بعد رحلتيه من مصر إلى أوربا فى خلال هذه السنوات التى انقضت بعد نشره الجزء الأول من ديوانه وهو « الملاح التائه » . وقد كانت هاتان الرحلتان وحياً جديداً فى نفس الشاعر وأعصابه وأحلامه ، وكانتا تغييراً فى حياته عامة وفى أفكاره خاصة ، ولم يكن بد إذن أن يجدَ قارئ هذا الديوان فرقاً بيّناً بين شعر « الملاح التائه » و « ليالى الملاح التائه » . وليس هذا الاختلاف بشىء ألبتّة ، فإن شاعريته لم تزل هى ما هى فى كليهما على نمط لم يختلف ، ولكنه نزع فى هذا الطَّوْر الجديد إلى السهولة والرِّقة ومعابثةِ المعانى والألفاظ بغزل رقيق من عواطفه . وعلةُ ذلك فيما نرى أنه انطلق من قيود مصر فى أول رحلته وخرج شارداً يستجلى روائع الحياة الأوربية الزاخرة ببدائع الفن ومعجزات الحضارة والعلم ، ونزلَ المنازل المتبرِّجة بفتنها فى عواصم المدن الأوربية ، وعبَّ من مُسكراتِ الجمال الفطرىّ والصناعىّ البديع الذى تستجيده أناملُ الحضارة الرقيقة العابثة اللاهية ، والتى لم تدع للفن مَعقلاً إلا لعبت به واستخرجت كنوزه وتلاعبتْ بها على أصول أخرى غير التى بنى عليها الفن القديم البارع المحكم ، وعرضت له الصور التى تفتن الناس بجمالها وتهدمهم بفتنها ، وتقعُ فى دمائهم موقعاً لا تلبث معه إنسانية الإنسان أن تشتمل من جميع نواحيها بلهيب من اللذة والسكر والفرح . . كل ذلك هزَّه وهزَّ أعصابه وألقى عليه من وحيه وتركه يقول من الشعر على السجية غير متكلِّف ولا مُنقِّح ولا راغبٍ فى الكد والعناء و ... ، والخبليَّة الفنية التى تريد البديع ، فإذا أدركته طلبت الأبدع ، فإذا بلغت تسامت إلى ما هو أبدع منهما ؛ لا تهدأ ولا تقرُّ ولا تستريح إلى جميل

كان هذا — فيما نرى — وكانت نفسه الشاعرة المتلفّتة — والتى تهجم بعينيها على أبكار المعانى بنشوة الشباب المريد — تتلفت تلفُّتَ الصائد ، تكاثرَ الصيد بين يديه ، فما يدرى ما يأخذ وما يدع ، وهو مع ذلك لا يزال يذكر صِغاره وأحبابه وهوى قلبه ، ومن يريد أن يصنع لهم حياةً من صَيده ؛ فهو يتلفَّت إليه بقلبه حنيناً وذكرى وصبابة . فهذه العواطف الدائبة فى تكوين شاعريته ، والتى تلوّنها بألوانها وتخاريجها ، هى التى جنحت به إلى السهولة والرقة والغزل الحلو بينه وبين معانيه وألفاظه ، ومن غير الممكن أن يتقيد الغزل الشعرى بقيودِ تضبطه ، وإلا انقلب تكلفاً واستكراهاً وجفوة .

الجندول

وإذا أردت أن تعرف صدق الذى قلنا به من العوامل الجديدة فى تلوين هذا الشعر ، فخذ هذه الأغنية الجميلة التى ترنَّم بها الشاعر الموسيقى ، ثم أعطاها الموسيقىّ البارع « عبد الوهاب » جوّ تغريدها فى ألحان هى من شعر الموسيقى ...

فإن الشاعر حين لعبت به فتن « عروس الإدرياتيك » فى كرنفالها المشهور ، ودَفِىء دَمهُ فى أنقاسها الحبيبة المعطِّرة ، وفجأته فِتنة من فِتَنِه التى عرضت فى صبابته ... أرقّ فِتنة فى أحلى جوّ فى سحر الليل المضىء فى أجمل فن الحضارة فى أحفل الليالى باللهو والعبث ، والضحكات التى تتردد بين أضواء الكهرباء ، حتى كأنها أمواجٌ من الضوء تضحك ضحكها — لم يستطع أن يضبط تلك الأمواج الفرحة المعربدة فى إحساسه الشاعر ، فبدأ يترنَّم :

أين من عينىّ هاتيك المجالى ... يا عروس البحر يا حلم الخيال
أين عُشّاقُك سُمّار الليالى ... أين من واديك يا مهد الجمال

ثم انطلق يصف عاطفته وجو عاطفته وعطر عاطفته ، كل ذلك بألفاظ غزليةٍ عاشقية ، تتنفس أنفاسها من المعانى المرحة ، حتى فى بعض اللوعة المستكنّة وراء نفسه ، والتى استعلنت فى قوله :

« أنا من ضيَّع فى الأوهام عمره »

بعد أن قال :

ذهبىُّ الشَّعر شرقىّ السمات ... مرح الأعطاف حُلوُ اللفتات

كلما قلت له : خذ ، قال : هات ... يا حبيب الرُّوح ، يا أُنس الحياة

كل ذلك والشاعر فى مرح ونعمة وخيال وافتتان ، وكأنه نسى الدنيا التى ولد فيها كما « نسى التاريخ أو أنسى ذكره » ... ولكنه لا يلبث يتلفت بعد ذلك تلفتاً مؤثراً عجيباً ، هو دليل الشاعرية الصحيحة التى اشتمل عليها تكوينه العصبى ... يقول :

قال : من أين ؟ وأصغى ورنا ... قلت : من مصر ، (غريب) ههنا

(غريب) ، هذه كلمة النفس الشاعرة فى مكانها من العاطفة وفى أقصى مدّها من التأثير ، إنه حرف يبكى من الغربة والحنين